المحاضرة الشعرية

(تابع ما قبلهُ)

وروي ان ابن ادريس كان ليلة بين يدي المنصور بن ابي عامر والقمر يبدو تارةً ويختفي السحاب تارةً اخرى . فاقترح عليهِ ان يقول شيئاً في ذلك بديهاً فقال

ارى بدر السماء يلوح حيناً فيبدو ثم يلتحفُ السحابا
وذاك انهُ لما تبدّى وابصر وجهك استحيا فغابا

قيل وجلس ابو اسحق الخبّري عند كافور الاخشيدي فدخل عليهِ ابو الفضل بن عياش فقال ادام الله ايام مولانا وكبر اليوم من ايام تبسم كافور الى ابي اسحق فقطن ابن عياش لذلك فقال

لا غروَ ان حنّ الداعي لسيدنا وغصَّ من دهشٍ بالريق والبهرِ
فش سيدنا حالت مهابتهُ بين الاديب وبين القول بالخصرِ (١)
وان يكن خفض الايام من دهشٍ في موضع النصب لا من قلة البصرِ
فقد تفاءلت من هذا لسيدنا والفأل مأثورهُ عن سيد البشرِ
بان ايامهُ خفض بلا نصبٍ وان دولتهُ صفوٌ بلا كدرِ

فامر لهُ بثلاثمائة دينار وللخبري بمائتين

وكان ابو الفضل الداري ليلة مع بعض اصحابهِ وبين ايديهم شمعة فاقتضى حديثهم الى وصفها فاطرق بعضهم لينظم فيها فابتدر ابو الفضل

ذهبنا فاذهبنا الهموم بشمعةٍ غنينا بها عن ظلمة الشمس والبدرِ
اقول وجسمي ذائب مثل جسمها ودمعتها تجري كما دمعتي تجري
كلانا لعمري ذوب نار من الهوى فنارك من جمرٍ ونارِيَ من هجرِ
وانتِ على ما قد تقاسين من اذًى تصدرك في نارٍ ونارِيَ في صدري

وجلس المعتمد بن عباد يوماً فانشد بعض جلسائهِ قول ابي الطيب

اذا خلفت ملك العيون بنظرةٍ اناب بها مُعيي المطيِّ ورازمه (٢)

فاستبدعهُ المعتمد واستحسنهُ وجعلهُ ابدع ما للمتنبي فارتجل ابن وهبون المزني

لئن جاد شعر ابن الحسين فانهُ بجود العطايا والثنا تفتح الثنا (٣)

---

(١) الخصر حبسة اللسان (٢) اناب شفي وانعى النهاب . ورازمه التي لا يقوم عزالاً

(٣) الثنا الاولى العطاء والثانية طعنة في الجنب وهو مثل

تباً عجباً بالتريض ولو درى بانك تروي شعرهُ لتأثما

وجلس يوماً والبزاة تعرض عليهِ فاستحث الشعراء في وصفها ارتجالاً فقال ابن وهبون

تقصيد قبلك سنةٌ مأثورة لكنها بك ابدع الاشياء
تقضي البزاةُ وكلما اضفيتها عارضتها بخواطر الشعراء

وكان عبدالله البلنسيُّ مع ابن خفاجة في جماعة من اهل الادب تحت دوحة خوخ منوّرة فهبت ريح اسقطت عليهم بعض زهر فقال ابو عبدالله ارتجالاً

ودوحةٍ قد ملت سراة تطلعُ ازهارها نجوما
هفا نسيم الصبا عليها فخلتها ارسلت رجوما (١)
كأنما الجوُّ غار لما بدت فاغرى بها السما

ودخل محمد بن علي الآمدي على ابن مظفّر في ايام ولايتهِ بثغر الاسكندرية فوجدهُ يقطر دهناً على خنصرهِ فسألهُ عن سببهِ فذكر ضيق خاتمهِ عليهِ وانهُ ورم بسببهِ فقال لهُ الرأي ان تقطع حلقتهُ قبل ان يتفاقم الامر فيهِ فقال اخترمن يصلح لذلك فاستدعى ابا منصور بن القاسم الحداد فقطع الحلقة وانشد بديهاً

تصبَّر في اوصافك العالمُ واكثر الناثر والناظمُ
من يكن البحر لهُ راحة يضيق عن خنصرهِ الخاتمُ

ولما وفد ابو نواس على الخصيب قال لهُ يجازهُ وهما بالمسجد الجامع في مصر انت غير مدافع في قول الشعر ولكنك لا تخطبُ فقام من فورهِ وصعد المنبر وانشد

نصحتكمُ يا اهل مصر نصيحتي ألا تأخذوا من ناصح بنصيحِ
رماكم امير المؤمنين بحية اكول لحيات البلاد شروبِ
فان يكُ باقي شرّ فرعون فيكمُ فان عصا موسى بكفِّ خصيبِ

واتفق ان خرج المهدي وبعهُ علي بن سليمان وابو دلامة فرمى المهدي ظبياً عنَّ لهُ فانفذ مقاتلهُ ورمى عليٌّ فاصاب كلباً من كلاب العيد فامر المهدي ابا دلامة ان يقول بديهاً في ذلك فارتجل

قد رمى المهديُّ ظبياً شكَّهُ بالسهم فؤادهْ
وعليُّ بنُ سليمانْ رمى كلباً فصادهْ
فهنيئاً لهما كل فتى يأكل زادهْ

(١) يقال هفت الريح بالصوفة حركتها وذهبت بها . والرجوم الجمر التي يرمى بها

واستدعى المعزُّ بن باديس ابا عبدالله بن شرف القيرواني وابن رشيق الارزيَّ وكانا شاعري حضرته وملازمي ديوانه فقال احب ان تنظما بين يديَّ قطعتين في صفة الموز على قافية النون . فنظما ذلك حالاً غير واقف احدهما على ما نظمهُ الآخر فكان الذي نظمهُ القيرواني

يا حبذا الموز واسعارهُ من قبل ان يضعفهُ الماضغُ
لانَّ الى ان لا عجسَ لهُ فالفم ملآنُ بهِ فارغُ
فانهُ لي مأكلٌ طيبٌ وانهُ لي مشربٌ سائغُ

وكان ما نظمهُ ابن رشيق

موزٌ سريع اكلهُ من قبل مضغ الماضغِ
مأكلهُ لآكلٍ ومشرب لسائغِ
فالفم من لين بهِ ملآن مثل فارغِ
يخالهُ وهو بالغٌ الحلق غير بالغِ

فانت ترى ان خواطر الاثنين تواردت على معانٍ واحدة حتى كادت الفاظهما تتشابه تشابه معانيهما في حين ان الواحد لم يقرأ ما نظمهُ الآخر وهذا يدلك على فطرتهما السليمة وسليقتهما الشعرية بحيث كان الشاعر منهما يعرف ما يقولهُ الآخر من غير ان يتكاشفا

وروى ابن الكلبيِّ عن ابيهِ قال حدثني شيخ من بني زياد بن عبد المدان وكان عالماً بقومهِ قال : نشأ غلام من بني جنب يقال لهُ رفاعة ويقال لهُ المخترش . فنبغ في الشعر ومانن شعراء قومهِ حتى ابرَّ عليهم فلما وثق من نفسهِ بذلك قال لابيهِ لأخرجنَّ في قبائل اليمن فان وجدت احداً يعاتبني رجعت الى بلادي وان لم اصادف من يعاتبني تغرَّبت قبائل العرب . فنزل بصرم[1] من بني فهد فاتى حجرة عن جنب الجواء فاذا عجوز حيزبون قد اقبلت معتة[2] متوكأ على محجن[3] . فقالت عم ظلاماً فقال قلت نعم ظلامك فقالت ممن الرجل . قال قلت من مذحج . قالت من ايهم قلت من جنب قالت اضيف انت . فقلت نعم . قالت فلا حملك الله ما عدوت ان بخلتنا واسأت احدوثتنا . ثم اثارت ناتئ وكنَّتها في خبائها وامرت وليدة لها فجاءت بتومر[4] يبرح في اهابهِ سخناً ومديةٍ وقالت اذبح ايها الرجل . واحتجبت واستلَّت[5] وطبخت وقربت طعاماً وجلست انا وهي والوليدة فلما تشبنا قالت ما رمى بك الى هذه البلاد فاخبرتها خبري ففحكت وقالت بتَّ فأجيئك غداً بمشر خرائد[6]

(١) جماعة (٢) ملتفة (٣) عصا لها عقافة (٤) الحولي من الماعز (٥) عملت خبزاً في الملة (٦) يراد بها هنا الابكار من البنات

ياتيك دون الرجال فان غلبت فارجع الى بلادك واعلم انك تومي من مرام.

فبتُّ فلما اصبحنا اذا العجوز قد اقبلت ومعها ثلاث فتيات فابتدرنَ الى الحجرة واقبلت العجوز فحيتني وسألتني عن مبيتي ثم اومأت الى احداهن فاقبلت كالغيدانة يميلها الصبا فقالت انت المتحدي لثانة فقلت نعم فقالت لن أسمع فقلت

سوامٌ تداعت سومها وعجافها (١)

فقالت حوامل اثقال تنوء فتزلحُ

فقلت اذا ابهت في حجرتيها رعاؤها

فقالت ممتْ فرق منها شوامر لقّحُ

فقلت فؤاد تداعي بالحنين عشارها

فقالت فتبرح نارًا او تبيت فتسنحُ

فقلت اذا وملت ارضًا سقتها بدرّها

فقالت افاويق (٢) رسل عضة لا تضيح

فقلت اذا افصحت اخلافُها خلتُ ما جرى

فقالت على الارض منهُ لجة تتضعضع (٣)

فقلت امطلقة ام ذات بعل؟ فقالت

عقال (٤) لعمر الله لو شئتُ بتّهُ شرادي ولكنّ الكرم اجدرُ

فقمتُ الى راحلتي فقالت العجوز رويت ام اطلب لك اخرى فقلت اروتني الاولى. فقالت الحق الآن بارضك. فخرجت اريد الرجوع فابى عليّ الحجاج الا قصد ما خرجت اليه فدفعت الى صرم من جرّم فاذا صبيان على غدير يترجزون (٥) فدعوت غلامًا منهم من أبشرهم فقلت يا غلام هل في صرمكم من ياتيني فقد برّزت على شعراء العرب. فقال. انا. فقلت انت ايها الفُصَيِّل (٦) فقال قل ودع عنك ما لا يجدي فقلت

اوابدُ كالجزع الظفاريّ (٧) اربعُ

فقال حماهنّ جون الطرّفين مولّعُ

فقلت يرود بين الروض في الامن جارهُ

(١) السوام الابل الراعية والعجاف المزيلة (٢) الافاويق ما اجتمع من الماء في السحاب. والرسل اللبن. وتضيح تمزج بالماء (٣) تفرق (٤) كناية عن انها ذات بعل (٥) يتشدون الاراجيز (٦) مصغر فصل وهو ولد الثعلب (٧) نسبة الى ظفار وهي بلد باليمن

فقال وأجلى بين المستضيء المودّع

فقلت فلي اشتكت أمّات فرد انين السقا

فقال وحبّ على اليد الصغير المذمّع (٢)

فقلت وشبّت على الأكباد نار من الصدى

فقال تظلّ لها بين الحيازيم تسفع (٣)

فقلت اولى لك وامتطيت ناقتي

وقد بقي شيء كثير في هذا المعنى وانما ذكرت ما يصح ان يؤخذ قياساً لسواه لاني لو شئت الاتيان على جميع ما ورد لم من هذا القبيل لامتد بي نفس الرواية الى غاية بعيدة لا يصل القارئ اليها الا بعد التبرم والملل . على ان فيما اوردته دليلاً على ما كان لهم من شدة الولوع بالتريض وفنونه وما كانت عليه ملكاتهم الشعرية من الرسوخ بحيث لم يكونوا يحتاجون الى اجهاد ذهن واعمال روية بل كان الشعر يأتيهم صاغراً ذليلاً سلس القياد ويوطئ لهم من وعره ما يتعذر على اشعر شعراء هذا العصر ان ينالوا شيئاً منه

نعم اني لا انكر ان المرحوم الشيخ ناصيف اليازجي ومن هم في طبقته او على قيد شبرٍ منه تحدوا الاقدمين في البديهة والارتجال والمحاضرة ولكن هذه الطبقة دون الاصابع عدداً هذا فضلاً عن ان ما نسجوه على منوال المتقدمين لا يتعدى بعض ابيات . وقد رأيت ان المحاضرة في العهد الغابر لم تكن مقصورة في كبار الشعراء النابغين من العرب بل كان لتلامذتهم وبناتهم وجواريهم حظ وافر منها وهذا يشير الى انهم كانوا يتوارثون قوة العارضة وملكة الشعر خلفاً عن سلف فلا يدرسون ولا يطالعون لان الشعر كان عندهم بمنزلة الحديث عندنا ليس الا

وعليه فلا يستغرب شعراؤنا وغيرهم اذا قيل ان النابغة ارتجل كذا ابياتاً وان الاخطل ابتدء كذا ابياتاً وان الخنساء اجازت فوراً وان القلام فلاناً اجاب على البديهة . وليحسبوا ذلك بمثابة قولنا ان زيداً في هذه الايام يحدث عمراً في كذا فكما لا يستغرب اخراج الحديث الثري لا يستغرب ارتجال الشعر عندهم ولا ينكر عليهم لانهُ كان حديثهم . نعم ان نظم شعراء الجاهلية لم يكن يخلو من بعض الغاظ وعرة ولكنها كانت مألوفة في عصرهم وان كنا نحسبها وحشية نافرة في عصرنا . فهذا لا يقدح في براعتهم وصفاء ذهنهم ورسوخ ملكتهم ولا يعد عذراً للمتأخرين عن عدم مجاراتهم رشيد عطيه

(١) ام الفرذان الموضع بين الكثبة (الشعرات في مؤخر ربع الدابة) والحافر . والسقا الثراب والشجر الشائك (٣) الذي لا يكتم سراً (٤) الحيازيم وسط الصدر وتسفع تجعل اثراً من النار